حول كتابة تاريخ المهمشين بالبلاد التونسية خلال الفترة الاستعمارية، مقاربة منهجية وأنثروبولوجية

عبد الواحد المكني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس

"لا يخلو أي مجتمع من المهمشين". تلك قولة معروفة ومألوفة الاستعمال لكنها لا تغني عن الاستقصاء والبحث في أزمان تفاقم التهميش وتكاثر المهمشين، وبالتالي الوقوف على أسباب الظاهرة التاريخية وفهم أبعادها ودلالاتها.

أجمعت المقاربات التاريخية على أن الزمن "الكولونيالي"، هو زمن ذروة التهميش، بفعل تحطيم التوازنات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية التي عصفت بها الرأسمالية وهو أمر لا يحتمل دحضا، ولكنه يتطلب توضيحا، وقياسا كمّيا، وتصنيفا نوعيا، كما لا يريحنا مثل هذا الحكم الإقراري من عناء الخوض في ظاهرة التهميش في مجتمعات قبيل الاستعمار أو بعيده.

يشمل التهميش كل القاصرين عن الاندماج الاجتماعي وكل المنبوذين والمغيبين عن تنظيمات المجتمع المألوفة والسائرة، وهي ظاهرة مفروضة في غالب الأحيان على الكائنات الاجتماعية، أفرادا كانوا أو جماعات، وينتج عنها انعدام التأهيل الاجتماعي والإقصاء والاغتراب.

تثير ظاهرة الهامشية والمهمشين مسألة على غاية من الأهمية بالنسبة لحقل الكتابة التاريخية اليوم. إنها ظاهرة كتابة تاريخ المغيبين والمقصيين ولا

مناص من طرح المقاربة في بعدها المنهجي والأنتروبولوجي وهو ما نحاول الخوض فيه مركزين على حالة البلاد التونسية زمن الاستعمار الفرنسي 1881-1956.

I - الأسطوغرافيا ودراسة الفئات المهمشة

اهتمت الدراسات الاجتماعية والتاريخية بالتهميش كظاهرة عامة وبالمهمشين كشريحة وفئة منسجمة فسلطت عليها نظرة عامة من "فوق ومن الخارج". وهو أمر مفهوم في ظل هيمنة التأثر بكبرى مدارس التحليل الهيكلية في الإنسانيات. ولم يقع التركيز كثيرا على المهمش كذات فاعلة اكتنفها الاغتراب والاحتياج والتأزم فكان الهامشي بذلك مقصيّا ومغيبا في المألوف من مطاوي الكتابات التاريخية.

كانت أحداث ماي 1968 بالنسبة لفرنسا ، بمثابة المنعطف الرمزي فهي بمثابة الطفرة التي غيرت واقع الكتابة التاريخية والمقاربة الاجتماعية ودفعت القلم التاريخي نحو الاهتمام بواقع الهامشية والتهميش وكانت قضايا الراهن وسيلة للنفاذ إلى الماضي التاريخي واستحضاره بل إن ميلاد توجه التاريخ المجهري في ايطاليا «microstoria» والتاريخ اليومي للبسطاء والمغيبين في ألمانيا «Alltagsgeshichte» ارتبط في ظهوره بهذه العناية التي أولتها العلوم الاجتماعية بالمقصيين والمهمشين كمحور للدراسة [1].

لقد تدعم ذلك التمشّي بفعل تكاثر التهميش والإقصاء في نهاية القرن العشرين فكان الميز الموجه ضد السود في الولايات المتحدة وإقصاء المرضى وذوي العاهات وتشريد الأطفال في الهند وتزايد نبذ المهاجرين وسكان الضواحي في أوروبا سببا في عودة قضية الهامشية في العلوم الاجتماعية إلى الضوء وتعدد المقاربات [2] والتأويلات حولها.

---

1) NOIRIEL Gérard, *Qu'est-ce que l'histoire contemporaine ?* Hachette, 1988, p108-110.

2) VINCENT Bernard, *Les marginaux et les exclus dans l'histoire*, Paris, PUF, 1979, p. 439.

ويطلق البعض على هذا الجنس من الكتابة الاجتماعية للتاريخ : تاريخ المغيبين ويسميه البعض الآخر تاريخ المقصيين والمستبعدين وتنعته زمرة أخرى بتاريخ المهمشين وهناك من يسميه أيضا *"تاريخ التابع"* "Subaltern studies" والمقصود بالتابع كل الفئات "الدنيا" من مزارعين فقراء ومحتاجين ولاجئين ومشردين وبائسين ويائسين وكل من عجز عن الاندماج في الأطر الأهلية العادية...

لقد ظهر هذا الصنف من الكتابة في الهند منذ خمسينات القرن العشرين وذلك في إطار الاهتمام بإسهامات وماضي المجموعات التي ليس لها تاريخ مكتوب أو معروف فقد كانت الغاية الأساسية هي كتابة تاريخ من الأسفل وإسماع صوت المقصيين من التدوين التاريخي الرسمي فهو يهدف إلى "إعطاء التابعين الفرصة للتعبير عن أنفسهم وتجاربهم وأدوارهم في التاريخ فالتابع لا يستطيع أن يتكلم" (3) وقد حاول المؤرخ المواكب إخراج التابع والمهمش من عتمة الإقصاء والتغييب وذلك بالتعامل معه كفاعل اجتماعي.

لقد امتاز التاريخ الاجتماعي بكونه تاريخا متعددا ومتجددا لا يخضع لأحادية النمط والمنهج وهو ما أدّى به أحيانا الى التشظي "إربا إربا" (4) حسب انتقادات البعض.

و لم تنج الدراسات التاريخية بالبلاد التونسية من التأثر بمقاربات التاريخ الاجتماعي وذلك إمّا بواسطة نواة المؤرخين الفرنسيين الذين درّسوا بالجامعة التونسية في بداياتها أو بواسطة الجيل الأول من المؤرخين التونسيين الذين تكونوا في فرنسا عند "جهابذة" التاريخ الاجتماعي ورموزه المتأثرين بمدرسة الحوليات (L'Ecole des Annales) .

فبعد فترة أولى من "تأثيث" الكتابة الوطنية للتاريخ وخاصة في الحقل السياسي لبلد حديث الاستقلال وبعد تعميق النظر في معطيات تاريخ حركة التحرر والاستقلال وتحليل عمقها الثقافي السياسي وأبعادها الاقتصادية، تفرّعت الدراسات ونحت نحو التخصص المنهجي فظهرت في ذلك الخضم البحوث

3) جرشن هد (آلن ميخائيل) : "دراسة التابع ... إعادة كتابة التاريخ ! "، صحيفة **أخبار الأدب**، القاهرة، عدد 10-10-2004 ، ص 32-33.

4) DOSSE François, *L'histoire en miettes*, La Découverte, Paris, 1987.

المتأثرة بالمقاربة الاجتماعية ولا يجب أن يغيب عنّا مدى تأثر "النواة المؤسسة" للدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة في الجامعة التونسية بالعلوم الاجتماعية بل ان بعضعهم ولج التاريخ من حقل علم الاجتماع والفلسفة.

اهتمت البحوث التاريخية التونسية المختصة في الحقل الاجتماعي في الفترة المعاصرة منذ البداية بما سمّي ببرنامج الأوليات [5].

كانت البداية بالتأريخ للطبقات وكان التركيز على الطبقة العمالية فتمّت دراستها من الوجهة التنظيمية (تكوين النقابات المستقلة، الانسلاخ عن الكنفدرالية العامة للشغل، تونسة التنظيم النقابي..) والنضالية مع التركيز على التحركات المطلبية والاضرابية كما انصرفت الدراسات في السبعينات الى دراسة الشرائح المضطهدة والقريبة من الطبقة العمالية فتم التركيز مثلا على دراسة الشرائح المنجذبة للفكر اليساري بمختلف تفريعاته (الاشتراكية، الشيوعية والفوضوية...).

وانطلقت منذ الثمانينات موجة جديدة في التاريخ الاجتماعي اهتمت بواجهة الأرياف والبوادي فدرست المجموعات غير المدينية في علاقتها بالسلطة خصوصا من زاوية التاريخ الجبائي والانتفاضي ،لقد تكرست تدريجيا مع نمو عدد المؤطرين والباحثين في مادة التاريخ في رحاب الجامعة التونسية النظرة المعمّقة والتفصيلية للتاريخ الاجتماعي فتم الخوض في مواضيع كانت شبه مغيبة إذ تم الاهتمام بأتباع الطرق الصوفية والأقليات والمهاجرين والخماسة والمغارسين والصعاليك والمهرّبين، الخ.

ولعل أبرز موجة من الدراسات هي تلك التي تواترت منذ أواخر الثمانينات حول الكادحين والفقراء والمحتاجين والمقصيين والمغيبين في تاريخ تونس الاجتماعي وقد انتصرت هذه الموجة للعامة المفقرة والمقصية من الشعب والتي عانت من "غطرسة البايات وظلم الاستعمار الغاشم" فقد تجنّدت عدة أقلام جامعية لإنصاف هذه الشرائح التي عانت طويلا من الصمت.

(5 TLILI Bechir, *Etudes d'histoire sociale du XIX e siècle*, Pub Université de Tunis, 1974, p. 25.

كان الانتصار للشرائح المعدمة والبسيطة والمفقرة بديهيا وممزوجا بحماسة فطرية عند المؤرخين وصلت عند البعض أحيانا إلى حد تأليه تلك الشرائح وإظهارها في موقف "الملائكة". وكانت البداية مع الدراسة الجريئة للمؤرخ محمد قريسة (6) الذي أنجز أطروحة حول علاقة السلطة بالمهمشين في فرنسا خلال عهد لويس الرابع عشر.

لم تتولد الجرأة فقط من عكس اتجاه البحث المتسم آنذاك بدراسة الفرنسيين لتاريخ المغارب بل تولدت أساسا من طرح قضية التهميش والمهمشين في خضم اهتمامات المؤرخ التونسي والحال أن الموجة آنذاك لم تبارح الصحيفة كمصدر أساسي والحركة العمالية ومشتقاتها كمختبر للعبر والدراسة.

مع ثمانينات وتسعينات القرن العشرين أخذ مبحث التهميش والهامشية مكانه في مدارات القلم التاريخي المهتم بالبلاد التونسية (7) وسمحت وثائق المخزن البايليكي بإبراز جوانب مخفية من تاريخ المهمشين والمقصيين فأتاحت وثائق السجون والضبطية والخطايا والدوايا وبيت المال والأوقاف تسليط الأضواء على تاريخ المساجين والمومسات والماجنين والمجرمين والجانحين.

---

6) GRISSA Mohamed, *Pouvoirs et marginaux à Paris sous le règne de Louis XIV (1661-1715)*, Pub. de l'Université de Tunis, 1980.

7) كثيرة هي البحوث التي أرخت للظاهرة : انظر على سبيل المثال البحوث الآتية

HENIA Abdelhamid, "Prisons et prisonniers à Tunis vers 1762 : système répressif et inégalités sociales", *Revue d'Histoire Maghrébine*, n° 31-32,1983, pp. 223-252.

LARGUECHE Dalenda et Abdelhamid, *Marginales en terre d'Islam*, Cérès productions, Tunis, 1992.

LARGUECHE A., *Les ombres de la ville : pauvres, marginaux et minoritaires à Tunis aux 18e et 19e siècles*, CPU, 1999.

EL ANNABI Hassen, «De l'exclusion et des exclus à travers les récits de voyage au XIXe siècle», *Cahiers de la Méditerranée*, vol. 69, Être marginal en Méditerranée (XVIe - XXIe siècles), 2004 .

بن طاهر (جمال)، **الفساد وردعه بالبلاد التونسية 1705-1840**, كلية الآداب منوبة، تونس 1995.

بوجرة (حسين)، "الظاهرة الخمرية وتطورها بالبلاد التونسية في العهد التركي"، **الكراسات التونسية**،عدد41-42 ص 26-114.

المكني (عبد الواحد) : **شتات أهل وسلات بالبلاد التونسية من 1762 حتى مطلع القرن العشرين**, دار سحر للنشر, تونس 1999

اعتنت هذه البحوث وغيرها بالهامشية والإقصاء في العصر الحديث مع تركيز خاص على منتصف القرن التاسع عشر أتاحه قلم التوثيق الجبائي والمخزني أكثر مما أفرزه الواقع التاريخي والموضوعي للظاهرة.

وفي السياق ذاته ظهرت عدة بحوث ودراسات تعرضت بشكل أساسي أو عرضي لعالم التهميش خلال الفترة الاستعمارية فتم التعرض لتاريخ الخماسة المفقرين والهطاية والمحتاجين الصعاليك والفتوات والمدمنين والمومسات...[8].

وقد تناهجت المقاربات وبرزت في الغرض دراسات سوسيولوجية وفلسفية وحقوقية [9] حول التهميش والإقصاء خلال العهد الاستعماري أو انطلاقا منه. لقد وفرت الأرشيفات الفرنسية والتونسية مادة هامة لدراسة عالم المهمشيين والمقصيين مثلما توفرت الرغبة المنهجية والمعرفية للخوض في

---

8) التيمومي (الهادي)، **الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ماقبل الرأسمالية. الكادحون الخماسة في الأرياف التونسية 1861-1943**، دار محمد على وكلية العلوم الإنسانية تونس، 1999. جزءان.
القسنطيني (الكراي)، **الاحتياج والمحتاجون بتونس العاصمة في فترة الاستعمار الفرنسي، 1885-1918**، مركز النشر الجامعي، تونس 1999.
ليسير (فتحي)، **من الصعلكة الشريفة الى البطولة الوطنية، دراسة في سير بعض المستبعدين من تاريخ تونس المعاصر**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 1999.
القسنطيني (الكراي)، "العمال الفلاحون الموسميون بشمال تونس خلال النصف الأول من القرن العشرين"، **المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي**، منشورات بيت الحكمة، قرطاج 1999.
القسنطيني (الكراي)، "الفقر والفقراء بالبلاد التونسية 1945-1948"، **المغيبون، نفس المرجع**.
التركي (عروسية) : "الهطاية في تونس 1881-1956 : الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية"، مجلة **روافد**، تونس عدد 8، 2003، ص 71-86.
بنمحمد (المنجي) : **مظاهر الفساد الاجتماعي زمن الحماية الفرنسية إدمان الخمر نموذجا**، شهادة الدراسات المعمقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2004-2005.
KERROU Mohamed et M'HALLA Moncef, "La prostitution dans la médina de Tunis aux XIXe et XXe siècles", in Fanny COLONNA et Zakya DAOUD (dir.), *Être Marginal au Maghreb*, Paris, Éditions du CNRS, 1993 pp 201-221.

9) خواجة (أحمد)، **الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس1998.
BEN AZIZA Hmaïd, «Exclus et exclusion», *Cahiers de la Méditerranée*, vol. 69, Être marginal en Méditerranée (XVIe-XXIe siècle), 2004. NASRAOUI Mustapha, *Représentation de la pauvreté dans la société tunisienne,* L'Harmattan, 1997; NASRAOUI M, *La vieillesse dans la société tunisienne*, L'Harmattan, 2003.

المسألة وفي كلتا الحالتين ساهم هذا المبحث ولا يزال في تكشّف جوانب هامة من التاريخ الاجتماعي المعاصر للبلاد التونسية ومزيد سبر أغواره.

II- مصادر دراسة تاريخ المهمشين بالبلاد التونسية خلال الفترة الاستعمارية

يعرف التاريخ الاجتماعي عند المختصين بأنه "مفترس للأرشيفات" ويتدعّم الأمر في حالة طرح موضوع المهمشين والهامشية وكل ما يتعلق بالمسألة الاجتماعية الجديدة وتتحول أغلب المصادر الى منبع لتوليد المعلومة. ولابدّ من التشديد في هذا الصدد على أن أغلب مصادر تاريخ المهمشين هي من نتاج "المركز" [10] وقطب السلطة المسيطرة والأمر ليس خاصا بالتاريخ التونسي فحسب. لم يخلف المهمشون مصادرا مباشرة وكل ما يتعلق بتاريخهم كتبه قلم القاضي والبوليس أو مأمور السجن أو كافل الإعالة الخيرية والصحية. ويجبر المؤرخ في هذه الحالة على التعاطي مع تاريخ الهامش انطلاقا من إيديولوجية المركز وهو ما يدفعه من الناحية المنهجية والتأويلية إلى التسلّح بنظرة نقدية للمصادر بسبب قلة حياديتها وانحيازها للغالب ضد المغلوب. أمّا من الناحية التقنية فهو مدعو إلى انجاز تاريخ جداولي إحصائي مثله مثل مؤرخ الاقتصاد أو الديمغرافيا التاريخية انطلاقا من المحاضر والشكاوى وأرشيف المحكمة والمؤسسة الأمنية والمستشفى والسجن.

ويبدو أن مؤرخ المسألة الاجتماعية الجديدة مطالب بتقصّي أنواع جديدة من المصادر تتناول التهميش لا فقط في بعده الجماعي بل في بعده الفردي من خلال حالات منفردة ومجهرية وكذلك بمحاولة تعقّب التاريخ اليومي والعادي للمهمشين لا فقط بتحيّن اللحظات الإنعطافية والاستثنائية التي ترتسم آثارها في الوثائق الرسمية بل أيضا بالاهتمام بنسق حياتهم اليومي والمالوف وهو أمر يصعب الوصول إليه من خلال الوثائق الأرشيفية المكتوبة فقط إذ هو يتطلب الاستنجاد بالمأثور الشفوي الموسّع.

من النادر في حالة تاريخ تونس الحديث أو المعاصر أن نعثر على وثائق تتضمن الاختلاجات الحية للبائسين أو ما عبّروا عنه من أنّات ومطالب

(10 SCHMIT Jean Claude, «L'histoire des marginaux», in LE GOFF Jacques (Dir.), *La Nouvelle histoire*, 1988, pp 277-306.

فعندما يلتجئ البائسون لبثّ شكواهم يقصدون العدل أو المؤدب أو الكاتب العمومي الذي يقولب تذمراتهم ضمن نمط جاهز للشكاوى مسبقا يشبه قوالب الإسكافي فنقترب من مشاغلهم دون أن نسمع صوتهم الحقيقي والتاريخي : إنّ تلك الجماعات المحرومة من التحصيل التعليمي الأدنى لم يكن بمقدورها إرسال العرائض والشكاوى للمسؤولين أو للصحف الناطقة بالعربية وبالفرنسية مباشرة. إن تاريخ هذه المجموعات المهمشة والمقصية ظل تاريخا صامتا وقدرة المؤرخ هي الإنصات لذلك الصمت وقد انفتح القلم التاريخي التونسي في الحقبتين الأخيرتين على مصادر جديدة مثل الأغنية الشعبية والزجل والشعر الشعبي والأمثال العامية والصور العتيقة وبعض الأفلام الوثائقية السينمائية القديمة لمزيد استقصاء تاريخ المهمّشين وقد مكنتنا هذه الدراسات من كشف الغطاء عن تاريخ المجموعات المغيبة والتي أجبرها "التاريخ الرسمي "على الصّمت فساهمت هذه الموجة من الكتابة في تجديد نظرتنا للتاريخ الاجتماعي التونسي.

بالإضافة إلى ذلك، يمكن التمييز بين عدّة أنواع من الأرشيفات التي تتضمن مخزونا من المعلومات القابلة للاستغلال رغم بعض العسر ونصنفها كالآتي :

الأرشيفات الكلاسيكية وهي مقصد كل الباحثين ونعني بها أرشيف المخزن والدولة التونسية من ناحية (سجلات الضرائب، ملفات الشيوخ، مراسلات القياد، وثائق جمعية الأوقاف...) وأرشيف المستعمر الفرنسي من ناحية أخرى (تقارير الاستعلامات، أرشيف الإقامة العامة، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية) وتمكننا هذه الوثائق من النظر إلى المهمشين من خلال إيديولوجيا المؤسسة الرسمية وخاصة نظرة السلطات الاستعمارية للمسألة [11] وهي أحيانا متضاربة مع نظرة المؤسسات المحلية التونسية وتحديدا جمعية الأوقاف وبعض رموز الحركة الإصلاحية والوطنية التونسية الذين حاولوا

---

11) نشير في هذا الصدد الى وثائق وأرشيفات مقاومة التشرد والتسول وطرد البدو من المدن انظر مثلا : **الأرشيف الوطني التونسي** (أ.و.ت.)، السلسلة A، ص 4، ص 4، م 18 (كامل الملفات الفرعية).

تسخير تلك المؤسسات لتوفير حد أدنى من المساعدة الاجتماعية للشرائح المفقرة والمهمّشة [12].

وعلاوة على ذلك تمكننا هذه الوثائق من دراسة المهمشين من خلال مؤسسات الإعالة الرسمية والخيرية [13] وخاصة أرشيف مأوى العجز "التكية" والطفولة المتشردة والموائد الشعبية وبيت المال وأكفان الغرباء وتجهيز اليتيمات [14].

الأرشيف العدلي الذي انجذب إليه اهتمام البحاثة في التاريخ المعاصر والحديث والمشتمل على كل الوثائق الصادرة عن العدول والقضاة والمفاتي وبعضها موجود في السلسلة D وC بالأرشيف الوطني التونسي والآخر في أرشيفات المحاكم مثل دفاتر العدول ودفاتر المحاكم الشرعية ودفاتر حصر التركات ودفاتر الأوصياء والمقدمين ويوجد جزء آخر هام من هذا الأرشيف العدلي بوزارة أملاك الدولة ويتضمن وثائق الحبسيات والمعاوضات والإنزالات وهي مصادر هامة لا فقط لدراسة واقع الفئات المهمشة والمقصاة بل أيضا لدراسة التراتب الاجتماعي وأطوار التناقضات والصراع داخل المجتمعات المحلية.

---

12) نلمح في هذا الصدد إلى مداخلة البشير صفر في حفل افتتاح التكية والتي تضاربت مع السلط الاستعمارية في النظر الى مسألة التهميش أو الى المقالات الصحفية اللاذعة التي كتبها محمود الماطري والحبيب بورقيبة في الثلاثينات ثم فرحات حشاد في الأربعينات حول البؤس الاجتماعي ومسؤولية السلطات الاستعمارية في تفاقمه.

13) ما زالت أغلب هذه الأرشيفات مجهولة المصير (حالة الجمعية الخيرية بصفاقس مثلا) وقليلة الاستعمال والاستغلال من قبل المؤرخين انظر : (أ.و.ت.)، السلسلة E **ص 2، م 33، ص 509.** **(أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية)**، أرشيف الإقامة العامة، ش 110 (R110) ص. 1732 م1 .

EL GHOUL Fayçal, «Les sociétés musulmanes de bienfaisance dans la Tunisie des années 1930», *Cahiers de la Méditerranée*, vol. 63, Villes et solidarités, 2001.

14) يمكن الاطلاع على أرشيفات وزارة أملاك الدولة وبها كم هام من وثائق الأوقاف خاصة وثائق بيت المال والمرستانات والتكية وباقي الأوقاف الخيرية كما يحتوي الأرشيف الوطني على نزر هام من الوثائق المشابهة أنظر : (أ– و– ت), س A، ص 2، م30 ,ص 33 م 15,11,8,4,3.1، السلسلة E، ص 545–5.

القسنطيني (الكراي) : **الاحتياج والمحتاجون...نفس المرجع**, ص405–408.

أرشيفات "جديدة"

بالإمكان السعي في استغلالها مثل أرشيفات البلديات الكبرى [15] التي تحتوي على ملفات حول التشرد والتسول والسكن الفوضوي للفقراء.

وينطبق الأمر على أرشيفات السجون مثل"كراكة" غار الملح وحلق الوادي وجوقار وبرج الرومي والسجون الفرنسية ببلدان "ما وراء البحار الفرنسية" وخاصة "كايان".

ولا بد من الإشارة إلى أهمية أرشيفات المستشفيات مثل معهد باستور وبه معطيات هامة منها المنشور ومنها المخطوط حول الأوبئة والآفات الجرثومية وضحاياها من المهمشين ومستشفى عزيزة عثمانة وشارل نيكول ومستشفيات الأمراض العقلية وخاصة حالة مستشفى منوبة [16] الشهير فقد تزايدت حالات مرضى الأعصاب والمصابين بالعاهات النفسية والمعتوهين[17] – وكلهم طبعا من أصناف المهمشين – بداية من ثلاثينات القرن العشرين مع اشتداد التعسف الاستعماري واستفحال التفقير والأزمة وكذلك في غمار حدث الحرب العالمية الثانية التي خلفت أهوالها هلعا في نفوس السكان التونسيين الذين شاهدوا طيلة نصف سنة دمارا غير مسبوق ونفس الأمر حدث مع المجندين في الجبهات الأوروبية فقد عاد بعضهم "مختبلا" وقد ساهمت تغيرات بنية العائلة وتحطيم التوازنات التقليدية في استفحال الظاهرة ولم يكن من باب الصدفة أن ينشأ مستشفى الأمراض العقلية سنة 1931.

---

15) نشير على سبيل المثال الى **أرشيف بلدية صفاقس**
ملف 17 التشرد ومقاومة التسول، م 16 دور البغاء، م 6 تقارير أمنية يومية، م 119 الأوضاع الصحية والجمعيات.

16) هو مستشفى الأمراض العقلية والنفسية بمنوبة واشتهر لاحقا بتسمية "الرازي". وقد كانت فكرة إنشاء مستشفى للمرضى النفسيين موجودة منذ سنة 1912 لكنها لم تتحقق إلا في جويلية 1931 بتأسيس مستشفى منوبة الذي انتقل إليه قسم من مرضى مستشفى الرابطة ولا نعرف الكثير عن مصير أرشيفات هذا المؤسسة الصحية القديمة نسبيا.

AMMAR Slaïem,"L'assistance aux aliénés en Tunisie", *La Voix de la santé*, Tunis 1954.

17) FOUCAULT Michel, *Folie et déraison. Histoire de la folie à l'âge classique*, Paris 1972.

الجدي (أحمد) : "مدخل الى تاريخ الجنون في القرن 19 "، **المركز والهامش في الثقافة العربية**، ص 185-204.

وفي السياق نفسه لا بد من التأكيد على محاولة الاقتراب من المصادر المباشرة للجماعات المهمشة وهي موجودة بصفة غير مباشرة في الأدب الشعبي المأثور وقد أجتهد محمد الحشائشي والصادق الرزقي ومحمد المرزوقي ومحمد علي بلحولة [18] وغيرهم في جمع هذه المادة الثرية وهناك من أجاد استغلالها بإتقان خاصة في المقاربة الأنتروبولوجية [19] والسوسيولوجية [20]. وتكمن الصعوبة في مدى استغلال تلك الوثائق وتعهدها بالتأويل الصحيح وفي نفس السياق يمكن الاطلاع على كتابات بعض الهامشيين الذين اختاروا نهج التضاد مع المألوف واختاروا معارضة النسق الرسمي السائد وتنظيماته في عهد الاستعمار ولذلك نصنفهم كهامشيين لا كمهمشين فقد اشتهروا بمجالس اللهو والمزاح وأمعنوا في الاستهزاء من كتلة المحافظين الموالين للاستعمار وقد نشروا أشعارهم الساخرة والمتمردة على أعمدة الصحف الهزلية التي انتشرت في ما بين الحربين مثل صحف "جحا والسردوك وبوقشة والنديم الزهو وكل شيء بالمكشوف" [21]. والأمر ينسحب على البعض من رموز مقهى "تحت السور"[22] و"تحت الدربوز" فشخصيات مثل على الدوعاجي وعبدالرزاق كرباكة ومحمد العريبي [23] الذي شهّر به عبد العزيز العروي في مقال صحفي مشهور سنة 1936 [24] ونعته ب "البوهيمي"، عُدَّت كلّها من "المرتادين" طوعيا واختياريا للهامشية، إنّ هذه الجماعات المثقفة المتمردة أنتجت أدبا ناقدا وساخرا ومتعارضا مع أدب المؤسسات الرسمية العالمة.

18) بلحولة (محمد علي) : **الجهاد التونسي في الشعر الشعبي مائة عام من تاريخ تونس 1855-1955**، د، ت، ن 1978، ص 186-190.
الرزقي (الصادق)، **الأغاني التونسية**، الدار التونسية للنشر، 1989.
المرزوقي (محمد)، **الأدب الشعبي**، الدار التونسية للنشر، 1967.
الحشائشي (محمد)، **العادات والتقاليد التونسية**، سراس للنشر، 1994.

19) LARGUECHE A., *Les ombres de la ville*…op.cit, pp. 141-153.

20) خواجة (أحمد)، **الذاكرة الجماعية**... نفس المرجع.

21) تتوزع مجلدات أغلب هذه الصحف بين الأرشيف الوطني والمكتبة الوطنية التونسية (قسم الدوريات).
الساحلي (حمادي)، **الصحافة الهزلية في تونس ، نشأتها وتطورها**، تونس، 1977.

22) التيمومي (الهادي)، **تاريخ تونس الاجتماعي** ، دار محمد علي ، 1997، ص 149 .

23) TURKI Mohamed , *Abdelaziz Laroui témoin de son temps*, Ed. Turki, Tunis, 1988

24) «Le Bohème» par Abdelaziz LAROUI , *Le Petit Matin*, 10 octobre 1936

ونشير أيضا إلى دراسات وصفية ميدانية لبعض الفرنسيين في مطلع القرن العشرين أصبحت بفعل التقادم من عداد المصادر من ذلك كتاب "المغتربون بتونس" أو "عرق البرنوس" (25) وقد تناولت موضوع التهميش والإقصاء الاجتماعي في تونس وحبّرها هؤلاء لا في إطار الشفقة والرأفة ببؤس االأهالي بل في خضم المطارحات والاختلافات السياسية في "المتربول" بين غلاة الاستعماريين ومعارضيهم من أنصار حقوق الإنسان ودعاة أنسنته.

III- تعريف تاريخي لظاهرة متحولة وصعبة القياس

حان وقت تعريف الهامشية والتهميش في هذا الإطار الزماني والمكاني المتسم بالهيمنة الكولونيالية في بلد عرف تزايد التفقير والإكداح قبيل الاحتلال الاستعماري.

تواترت ألفاظ التهميش والهامشية والمهمشين كنعوت وصفية في دراسات عديدة دون ان ترفق بتعريف متكامل لفحواها وتاريخيتها وقد قامت بحوث مختصة بتعريف التهميش الماقبل استعماري (26) أو التهميش المتولد عن الفقر والاحتياج في الزمن الكولونيالي (27) ويعزى نقص التعريف أحيانا لحداثة ظهور المصطلح الذي استعمل سابقا في الرياضيات والاقتصاد ولم يلبس حلة الدلالة الاجتماعية إلا مع الستينات انطلاقا من واقع المجتمعات الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وايطاليا ويعني المصطلح معجميا (28) كل من يعيش بعيدا عن المركز والكائن اللااجتماعي Asocial وغير المندمج في تنظيمات المجتمع.

---

25) BOUQUET H., *Les aliénés en Tunisie*, Lyon, 1909.

D'OCTON Paul-vigné, *La sueur du burnous. Les crimes coloniaux de la troisième République*, Paris, Les Editions sociales, 1911.

26) LARGUECHE A., *Les ombres de la ville*...op.cit., pp. 253-388.

27) القسنطيني (الكراي) : **الاحتياج والمحتاجون**...نفس المرجع، ص 244-248.

ABDI Noureddine, «Implications théoriques et méthodologiques des notions de pauvreté, d'exclusion sociale et de marginalisation», *Cahiers du C.E.R .E.S*, série sociologie, n° 23,1994.

28) Cf. Dictionnaire Le Petit Robert, (termes : marginal, marginalisme, marginalité).

أخذ المصطلح مكانه في اللسان العربي بداية من السبعينات وهو نتيجة بحث لغوي توليدي مستحدث أكثر منه نتيجة إحياء للفظ قديم فيقصد بالهامش المجال الطرفي البعيد هندسيا عن المركز. ومصطلح التهميش مستعمل بكثرة خاصة في الدراسات السوسيولوجية وحداثة الاستعمال في القواميس واللغات لا علاقة لها بقدم الظاهرة تاريخيا فتتحدث المصادر العربية عن "السوقة والأغفال والدهماء والرعاع والسفهاء والمنبوذين والبؤساء والأوباش" وكلها نعوت للطبقات الاجتماعية الدنيا التي تتموقع في هامش تنظيمات المجتمع والتي تكون دوما عرضة للإقصاء والتغييب [29].

فالتهميش ظاهرة تاريخية مادية اقتصادية ولكنها أيضا ظاهرة نفسية ومعنوية ولا يخلو أي مجتمع وأو عصر من تبعاتها وحداثة المصطلح لا تحجب قدم الظاهرة.

إن الذي يعنينا في هذا الصدد هو تعريف "الهامشية الاستعمارية" التي تولدت أو تواصلت وتعمقت بفعل الاستعمار "الكولونيالي" في مجتمع زراعي محدود التقنيات تميزت تشكيلته الاجتماعية بالعتاقة ولابد من الإقرار بتزايد العوامل والدوافع التي ساعدت على تنامي ظاهرة التهميش منها نمو حجم المدن وتأثير الاقتصاد الاستعماري [30] فقد أدّى النمط الرأسمالي المهيمن إلى تزايد التفقير والبطالة والاحتياج وهي مظاهر سابقة للزمن الاستعماري لكنها لم تكن بارزة بنفس الحدة فقد ساهمت تنظيمات المجتمع التقليدي في خفوتها وتلطيفها.

وبالنسبة إلى الإطارين الزماني والمكاني تلمح أغلب الدراسات التي اعتنت بتاريخ تونس المعاصر إلى احتداد الهامشية في ثلاثينات القرن العشرين وإلى المدن وخاصة الحاضرة تونس كقطب للتهميش والهامشية ومثل هذه الأحكام على صحتها تتطلب تنسيبا وتدقيقا.

---

29) GOGUEL D'ALLONDANS Alban, *L'exclusion sociale : les métamorphoses d'un concept (1960-2000)* , L'Harmattan, 2003; Norbert ELIAS, *La logique de l'exclusion*, 1965, coll. Agora, trad. fr. 1997, BOURDIEU Pierre, (Dir.) (1993), *La misère du monde*, Le Seuil, Paris.

30) BEN HAMIDA Abdessalam, *Capitalisme et syndicalisme en Tunisie de 1924 à 1956*, Pub. de l'université de Tunis, 2003.

لقد أدّى الاستعمار الزراعي والمنجمي إلى بروز التهميش في نواجع القبائل والعروش الريفية فظاهرة "جوع الأرض" وانعدام القوت أسهم في بروز شرائح الفقراء المعدمين والجائعين والمتسولين ولم تعد القبيلة ولا العشيرة العائلية ولا الزاوية ملاذا ضامنة وكافية للحضانة والإعالة ولم تعد تلك الهياكل التقليدية قادرة على تلطيف نسق البؤس والتفقير لذلك فالتهميش الاستعماري لم يقتصر على مجتمع المدينة بل تعداها إلى مجتمع القرية والبادية لكن ظلت حدة الهامشية أقل بروزا وتأثيرا كلما ابتعدنا عن مجال الحواضر الكبرى.

أمّا بخصوص الحيّز الزماني فلا جدال في ان فترة الثلاثينات والتي ينعتها البعض بفترة "الطفرة" قد مثلت زمن ذروة التهميش وتفاقم البؤس الاجتماعي ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن الظاهرة ارتبطت ببدايات الاحتلال الاستعماري المباشر فقد ارتكبت الجيوش الاستعمارية الفرنسية عدة جرائم وفضاعات حربية خلال حملة 1881-1882 والتي خلفت ضحايا ومعوقين ومساجين وفقراء فقدوا "خيامهم وزرعهم وضرعهم" وتاهوا في دروب التهميش وتواصل الأمر مع فلول من المهاجرين التونسيين في طرابلس الذين عاشوا الاغتراب والخصاصة. وحدث الأمر ذاته مع المزارعين الذين افتكت منهم أراضيهم عنوة في غمار مشروع الاستعمار الزراعي الرسمي بداية من 1892 فاضطرتهم الظروف إلى الترحال شمالا أو النزوح نحو المدن بحثا عن حظ أفضل وتطلعنا تقارير السلطات الأمنية على تكاثر جحافل المهمشين بمدينة تونس منذ مطلع القرن وهو ما أدى إلى تبني المصلحين والوطنيين مشاكل هذه الطائفة ونذكر خاصة البشير صفر الذي أثار الموضوع (31) مرارا عديدة على أعمدة الصحف وفي المنتديات الثقافية أو خلال حفل افتتاح التكية سنة 1906.

لم يكن من باب المصادفة أن يثار موضوع المساعفة الاجتماعية والشفقة على البؤساء من قبل النابهين الوطنيين بعد مرور عقدين فقط على الحدث الاستعماري لقد خلفت النظيمة الاستعمارية بؤسا وتهميشا وتفقيرا شمل شرائح جديدة كانت بمنأى عن تلك الشرور (32).

(31 SFAR Bechir, *Assistance publique musulmane en Tunisie*, Tunis, 1986.

32) المحجوبي (علي) : **جذور الحركة الوطنية التونسية 1904-1934**, بيت الحكمة قرطاج، 1999، ص 54-68.

القسنطيني (الكراي) : **الاحتياج والمحتاجون**...نفس المرجع، ص 27-42.

وأشارت الدراسات المختصة إلى دور المهمشين البائسين والأطفال المشردين في أحداث الجلاز والتراموي سنتي 1911 و1912 فقد كان لمقتل الطفل "رابح دقلة" [33] – والاسم وحده يوحي بانتمائه الاجتماعي- أثره المباشر في اندلاع أحداث العنف يوم 7 نوفمبر 1911 وقد حمّلت التقارير الرسمية المستقصية لأسباب الأحداث إدانة واضحة "للسفهاء والأوباش والسفلة" [34] والمقصود طبعا هو فئة المهمشين وفاقدي السند من فقراء ونازحين وقد نال القصاص الاستعماري من الشاذلي القطاري وهو شاب عاطل عن العمل في سن الواحدة والعشرين والمنوبي الجرجار وهو نادل بمقهى في سن الثلاثين [35] وألقابهما تدل على أصولهما الجغرافية فهما من صنف الشرائح المهمشة والنازحة بحاضرة تونس. إن إعدام الشابين في ساحة عامة وفي احتفال عقابي غير مسبوق لا يعدو أن يكون ترهيبا وقائيا لمثل هذه الفئات المهمشة والبائسة لإثنائها عن أي مساس بالأمن الاستعماري.

حدث كل هذا قبل الحرب العالمية الأولى لذلك فالثلاثينات ليست زمن بدايات التهميش بل هي زمن "التفاقم" كما ان المدينة ليست القطب الوحيد لاحتضان الهامشية الاستعمارية بل هي فقط القطب البارز والأكبر. ويتراءى لنا أن الهامشية الاستعمارية جرفت عدة شرائح اجتماعية ضعيفة ومفقرة ينعتها المختصون بالفئات السفلى [36] غير ان المهمش ليس دائما الفقير والمحتاج فقط وفي كل الأحوال فلفظ الفقر المتداول في بدايات الاستعمار يرمز إلى "فقراء" الصوفية والزوايا والمتزهدين روحيا ودينيا لا إلى فقرء الجيوب فحسب.

لا شك ان التهميش من نتاج الفقر الذي خلفته السياسات الاستعمارية والذي تجلت مظاهره منذ مطلع القرن العشرين غير انه لا يمكن حصر التهميش فقط في الفقر فالهامشية الاستعمارية تمتد إلى شرائح وفئات أخرى مثل الغرباء الذين يعيشون منبتين عن عائلاتهم والذين وفدوا من مناطق داخلية

---

33) AYADI Taoufik, *Mouvement réformiste et mouvements populaires à Tunis*, Pub de l'université de Tunis, 1986, p.172-183.

34) القسنطيني (الكراي) : **الاحتياج**...نفس المرجع، ص 284-289.

35) AYADI T., *Mouvement…op .cit,* p.211.

36) FURET François, «Pour une définition des classes inférieures à l'époque moderne», *Annales E. S. C.* n°3, mai-juin 1963, pp.459-474.

نائية أو بلدان وأقطار بعيدة والغريب هو كل من تجاوز الحدود في السلوك أو في المظهر وصعب عليه الاندماج في المجتمع المحلي ونجد في بعض المدن الكبرى مؤسسات تعنى بإعالة هذا الصنف من المهمشين مثل البيمارستان ووقف أكفان الغرباء ومقبرة الغرباء [37].

وينتج الإحساس بالغربة عن ظاهرة الهروب من الأسرة أو القرية أو العشيرة و"الهربة" [38] موقف فردي وأحيانا جماعي ينتج عن العجز أو الخوف أو ضعف الاندماج ويجد الغريب صعوبات جمّة في الاندماج في المجتمع الجديد بحكم غياب فرص العمل والسكن والاندماج.

وشبيه بهذا الصنف من المهمشين نجد مجموعات "البراينية" وهم الوافدون على المدن الكبرى وبقدر ما تنجح جماعات منهم في الاندماج وتحصل بذلك على صفة "ابن البلد" فان مجموعات أخرى تفشل في الاندماج وتظل صفة "البراني" تلاحقها ففي مدينة صفاقس خلال الفترة الاستعمارية كانت هناك مشيخة خاصة "بالبراينية" [39] وهو ما يدل على محدودية اندماج هذه الشرائح الوافدة والتي كانت عرضة لحملات التمشيط والترحيل (الرافل) [40] وتزخر أرشيفات قيادة الأحواز بمدينة تونس بقائمة المطرودين والمرحّلين من المدينة بتهمة التسكع والتشرّد [41].

---

37) المكني (عبد الواحد)، "المدينة والغرباء في العهد العثماني : مثال صفاقس في القرن التاسع عشر"، **المدن العربية والديمغرافيا والبحر الأحمر خلال العهد العثماني**، منشورات سيرومدي (التميمي)، زغوان 1994، ص 337-353.

38) ENNAJI Mohamed, «Al Harba, une forme d'exclusion sociale», *Être Marginal au Maghreb...op.cit*

39) (**أ.و.ت.**)، السلسلة A، ص 137 م 35 مشيخة البراينية بصفاقس.

40) ظهرت في الثلاثينات تشريعات بلدية خصوصا في مدينة تونس لمقاومة التسكع والتشرد وقد كانت حملات تمشيط منظمة تستهدف المهمشين وخاصة البدو وحملت هذه الحملات شعار "مقاومة التسكـــع" Lutte contre le vagabondage وقد ظهرت في الاستعمال العامي كلمة "باقابو" ويرمز بها الى كل جانح أو متسكع وقع طرده من المدينة.

41) من ذلك قائمة ب 55 شخص وقع ترحيلهم من الحاضرة يوم 8 جويلية 1936 والتهم من جهات باجة والكاف والسواسي وجبنيانة ومدنين وتطاوين انظر : (أ. و. ت.)، السلسلة A، ص 4، م 18، م ف 1، وثيقة عدد 136.
م 18، م ف 18 وثيقة عدد 136.

وتشمل ظاهرة التهميش الاستعماري الموبوئين وأصحاب العاهات الخطيرة الذين لفظتهم مؤسسة العائلة وعجزت أحيانا "التكايا" والمشافي على إسعافهم إمّا بسبب نقص إمكانياتها أو بسبب قصور في سياسة الإعالة الاجتماعية للنظام الاستعماري الفرنسي.

ويشمل التهميش المدمنين من ضحايا المخدرات وخاصة التكروري [42] ومدمني الخمر الذين تزايد عددهم وهو ما أدّى إلى بروز الرابطة التونسية لمكافحة الإدمان الخمري سنة 1902 [43].

ومن أصناف المهمشين الفتوات [44] و"العصابات الحضرية" التي برزت في أغلب المدن الكبرى ومرتكبي اللصوصية والسرقات [45] الذين ينتظمون في شكل شبكات تحترف سرقة المارّة والمنازل والأسواق.

ونصنف "السحرة" والمشعوذين و"المتدروشين والرمّالة والعرافة" و"الغرابة" الذين يدعون استخراج الكنوز وتحضير الأرواح ضمن خانة المهمشين ثقافيا واجتماعيا فأغلبهم من ضحايا التهميش كما إنهم يروجون ثقافة ممعنة في الهامشية والإيمان بالخوارق والتهويمات التي لا علاقة لها بالواقع المعيش.

وتشمل شريحة المهمشين المساجين المحكومين لفترات طويلة أو بالأشغال الشاقة "الكراكجية" [46] وقد كانت لهذه الجماعات ثقافة سجنية خاصة

---

42) نشر الحكيم محمود الماطري مقالا ينبه فيه الى آفة التكروري وما خلفته من ضحايا ومختبلين وذلك في صحيفة "لاكسيون" في فيفري 1933. كما نشرت له نفس الصحيفة في عدد 29 مارس 1933 مقالا حول التكروري في الساحل وما خلفه من سلبيات اجتماعية أدت الى تزايد المهمشين.

43) (أ . و. ت.)، السلسلة G، الفرعية 2 ص 22، م 22.

44) فتوّات جمع فتوّة وهو عبارة عن بطل أو صعلوك "خارج القانون" ويعرفون في تاريخ تونس المعاصر باسم "الباندية" وهو تعريب مباشر للفظ الفرنسي (Bandit).

45) توجد ملفات عديدة حول اللصوص وقرارات الإبعاد والنفي المتخذة بشأنهم انظر :
(أ . و. ت.)، السلسلة A ، ص 208 ب (كل الملفات)، ص 209، م 1 وبه 270 ملف فرعي حول اللصوص والسراق.

46) مازالت الذاكرة الشعبية تجتر الأحاديث حول كراكة "عنق الجمل" بغار الملح والتي سجن فيها الوطنيون التونسيون في الخمسينات وقد كانت في السابق محبسا للمجرمين الخطيرين.

يقع ترويجها في صفوف المهمشين والفتوات من ذلك لهجة "القجمي" أو فن "الزندالي" (47) وهو تعبير غنائي وشعري ضعيف اللغة لكنه حزين ومتشائم.

وينسحب أمر التهميش الاستعماري على المومسات وضحايا الانحراف الجنسي وقد عرفت الظاهرة تزايدا في الفترة الاستعمارية خاصة بإحداث مواخير "رسمية" في أغلب المدن الكبرى مثل عبد الله قش بالحاضرة (48) ونهج الجم بصفاقس وقدّر أحد التقارير الرسمية (49) عدد المواخير ودور البغاء العلنية في الايالة التونسية سنة 1936 ب 19 منها 7 بمدينة تونس و1 بباجة و6 ببنزرت و2 بصفاقس و3 بسوسة كما قدّر عدد المومسات بمدينة تونس في شهر أوت 1935 ب 366 منها 203 امرأة مسلمة و12 يهودية و115 أوروبية (50) في مدينة تعد حوالي 200 ألف نسمة وقد أشار التقرير ضمنيا إلى ان العدد الحقيقي للمومسات ومحترفات البغاء اكبر بكثير من الأرقام المقدمة.

ومن الفئات المهمشة جحافل المتسولين خاصة بالمدن الكبرى الذين انتقلوا أحيانا من التسول العارض والاضطراري إلى شبه "الاحتراف" فقد اشتهرت بعض الأماكن بتكاثر عدد المتسولين من ذلك محيط مقام "سيدي محرز" و"دار الشرع" وأبواب سور المدينة وقد قدر عدد المتسولين بمدينة تونس لوحدها بحوالي 4500 شحاذ في منتصف الثلاثينات (51).

وينطبق التهميش الاستعماري على الأطفال المشردين (52) الذين لفظتهم نواة الأسرة وافتقدوا للسند والإعالة فكانوا ضحية للتسكع والجوع والتشرد وانجذبوا أحيانا للجنوح والشذوذ وترشدنا مدونات الأرشيف عن عالم هؤلاء الصبية المتشردين والفاقدين للسند فقد بلغ عددهم بمدينة تونس 85 طفلا في شهر جانفي 1942 تراوحت معدلات أعمارهم بين 10 و11 سنة وقد أكد نفس

---

47) نسبة الى سجن الزندالة بباردو والزندالة هي زنزانة سجنية ضيقة.

48) KERROU M. et M'HALLA M., "La prostitution dans la médina de Tunis''...*op. cit.*

49) (**أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية**)، أرشيف الإقامة العامة، ش 212، م 2 عدد 1888، ورقة 236.

50) **نفس المصدر** ، ورقة 247.

51) التيمومي (الهادي) : **تاريخ تونس الاجتماعي**... نفس المرجع ، ص 147.

52) ناجي (رجاء) : **الأطفال المشردون، قضاياهم وحقوقهم**، الأليكسو 2006.

التقرير [53] أن العدد يصل إلى 300 طفل في المعدّل منهم من هو من أصول ايطالية ويهودية وهو ما يدفعنا إلى التأكيد بأن التهميش لم يشمل الأهالي المسلمين فحسب بل شمل شرائح مفقرة من الطوائف اليهودية بالحارة وكذلك الفقراء الإيطاليين خاصة ذوي الأصول الصقليّة.

ونصنف جماعات "قدماء المحاربين" [54] ضمن خانة المهمشين فقد عاد أغلبهم من جبهات الحروب البعيدة في حالة نفسية وذهنية اكتنفها الشرود والاغتراب ومنهم من ظل يجتر ذكرى الماضي ولا يبارحها ومنهم من حاول "لملمة" الجراح سعيا إلى الاندماج وقدرت المصادر عدد هؤلاء المحاربين القدامى سنة 1949 بحوالي 44 ألف [55] منهم مجموعة هامة استعصى عليها الاندماج بل وحتى الاعتراف بماضيها ومجهودها الحربي ولابد من التأكيد أن أرامل وأيتام ضحايا الحرب كانوا بدورهم عرضة للخصاصة والتهميش.

وظهرت في المدن الكبرى مع انتشار المباريات الرياضية وخاصة في كرة القدم [56] شريحة من مهووسي الملاعب الذين يعيشون على وقع المقابلات ويجنحون إلى رفع الشعارات الاستفزازية وممارسة العنف والتكسير وهو صنف جديد من المهمشين تكاثر بداية من الثلاثينات وترشدنا التقارير الأمنية الفرنسية إلى تزايد العنف بالملاعب من ذلك حادثة يوم 9 ديسمبر 1934 بالملعب البلدي بالعاصمة [57] حين تحالفت جماهير الترجي التونسي والنجم الساحلي للرد على عنف بعض المهمشين والمتعصبين الايطاليين والفرنسيين.

---

53) (أ . و. ت.)، السلسلةA ، ص2، م3 وعدد 10.

54) BELAÏD Habib, « Un exemple d'association d'encadrement : Les anciens combattants de Tunisie (1950-1952) », Actes du colloque *La Tunisie de 1950-1951*, ISHMN, Tunis, 1993, pp. 181-196.

55) *Ibid*, p. 185.

56) BELAID H. «Le phénomène sportif dans la Tunisie coloniale : l'exemple du football et de la boxe entre les deux guerres», dans : OSSMAN Susan (Dir.), *Miroirs Maghrébins. Itinéraires de soi et paysages de rencontre*, Paris, CNRS Editions, 1998, pp. 253-268.

57) جمع الملعب في نفس اليوم مقابلتين الأولى بين الترجي والسبورتينغ والثانية بين النجم و"الطليعة" *Avant-garde*
(أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية)، أرشيف الإقامة العامة، ش57، م عدد 1609، ورقة451 .

ويستبطن التهميش الاستعماري خلفية ثقافية تتمثل في رواج ثقافة كاملة اشتهرت بالثقافة الهامشية وهي تستند إلى خلفية تقليدية موغلة في الإيمان بالخوارق مستسلمة خانعة أحيانا ومتمردة ناقمة وعابثة أحيانا أخرى وتتمظهر تلك الثقافة في رواج الفن المبتذل مثل "الربوخ والزندالي" الذي انتشر في المقاهي الغنائية وفي الفضاءات العامة بالمدن مع رواج للأهازيج الخليعة والأغاني الهابطة والمارقة [58] وهو ما أدى الى بروز مقالات مندّدة بالظاهرة من ذلك مقال مصطفى بن شعبان [59] في جريدة "الزهو" في أوت 1937 والذي حمل بشدة على رواج الفن الإباحي المرتبط بثقافة السوقة الدهماء وكذلك انتشار البذاءة والشتائم في اللغة المستعملة في التخاطب وهو ما جعل الشاعر محمود بيرم التونسي يطلق صيحة فزع في جريدة "الزمان" "تكاد تكون تونس الوحيدة في العالم التي لا يراعي أوباشها آداب السير والحديث... فقد انغمست كل ألسنة سكانها في البذاءة وأصبحت كأنها من علامات الرجولة والفتوّة" [60].

وعبر التهميش الاستعماري عن نفسه مجاليا وسكانيا [61] لا فقط في فضاءات الحضانة التقليدية كالزوايا والأضرحة والمرستانات بل في فضاءات أخرى أشمل مثل الأرباض التي "تريفت" وتفقرت.

ففي الحاضرة تكاثر سكن الفنادق والوكايل [62] والتي كانت مخصصة في الأصل لسكنى الأجانب ولخزن البضائع لكنها تحولت تدريجا لسكن بعض الأسر الفقيرة وبعض "العزاب" المهمشين وتحولت من سكن وقتي إلى سكن شبه دائم وقد بلغ عدد الفنادق عشية الاستقلال 46 فندق تأوي في المعدل 100 ساكن وبلغ عدد الوكايل 62 وكالة معترف بها 39 يملكها التونسيون 22 الجزائريون و1 مغاربة فناهز سكان هذه الفضاءات خلال نهاية الأربعينات 10 ألاف نسمة

---

58) من نوع أغاني (اسكر سكرة مع وخيانك، يا سعدودي الخير بزايد، شرشور وخدمة شانطي ...) وقد انتشرت خاصة في فترة مابين الحربين : خواجة (أحمد) : **الذاكرة الجماعية... نفس المرجع**, ص 174-184.

59) جريدة **الزهو** عدد 29 أوت1937 مقال لمصطفى بن شعبا بعنوان "الأغاني الفاجرة".

60) جريدة **الزمان** 14 أوت 1934 "مدينة الشتائم" ورد ب : التيمومي (الهادي) : **تونس 1956-1987**، دار محمد علي للنشر، تونس، 2005، ص 216.

61) VANT André (Dir.), *Marginalité sociale, marginalité spatiale*, Paris, CNRS, 1986.

62) CALLENS Michel, «L'hébergement à Tunis. Fondouk et Oukala», *IBLA,* XVIII, 1955, pp. 257-272.

كانوا في غالب الأحوال من النازحين ومحدودي الدخل وكانوا عرضة للإباحية والفوضى والهامشية.

كما انتشرت ظاهرة الضواحي الهامشية الفقيرة وأحزمة الصفيح القصديرية وهناك من أسماها بالمدن الحمراء أو مدن الأكواخ [63].

وقد تميزت هذه الأحياء بزهد مواد البناء المتكونة أساسا من الخشب والورق المقوّى والقصدير وفواضل الألواح وهي في الأصل أراضي بيضاء متروكة وذات وضعية عقارية غامضة وتم "استيطانها" منذ بداية القرن العشرين وخاصة في فترة الثلاثينات والأربعينات من قبل النازحين والمحتاجين ومن أشهر هذه الأحياء الجبل الأحمر الذي كان يعد سنة 1946 حوالي 6046 نسمة وقد تحول في الدراسات الى رمز من رموز الهامشية والتفقير الاستعماري وحي رأس الطابية الذي كان يأوي سنة 1946 أكثر من 4635 والملاسين 15021 والسيدة المنوبية [64] 4163 وبئر فضال وبرج علي رايس 7551 وزيتون الجربي 3643 وجبل الجلود وسيدي فتح الله 8748.

وقد فاق عدد سكان الأحياء الستين ألف نسمة في منتصف الأربعينات [65] فعادل بذلك تقريبا عدد سكان المدينة العتيقة بالحاضرة وانبثقت أحياء أخرى في مطلع الخمسينات تحتوي على نفس سمات البؤس والتهميش وهي الكبارية وحي المثاليث وحي نقّز والمعلقة والأحواش وكانت أغلب هذه الأحياء تعيش الاكتظاظ والتلوث وغياب المرافق الصحية الأساسية ففي أحياء مثل الملاسين والجبل الأحمر كانت نسب وفايات الرضع تفوق بستة أضعاف باقي نسب أحياء مدينة تونس وتفشت في هذه الأحياء الأمراض المعدية بسبب كثرة الأوساخ وضيق محلات السكن فقد كان حي الجبل الأحمر لوحده سنة 1951 يضم 1230 كوخا و405 من البنايات الخربة أو المتداعية ولا يوجد بالحي إلا 12 مشتركا في شركة المياه و3 حنفيات عمومية ومدرسة واحدة عصرية

---

63) BERQUE Jacques, «Médinas, villes neuves et bidonvilles», in *Cahiers de Tunisie*, n° 21-22, 1958, pp. 7-42.
SEBAG Paul, «Le bidonville de Borgel», *Cahiers de Tunisie,* n°23-24, 1958, pp. 267-309.

64) SEBAG P., *Un faubourg de Tunis. Saida Manoubia*, Paris, Puf, 196.

65) SEBAG P., *Tunis. Histoire d'une ville*, L'Harmattan, 1998, p532-541

وبعض الكتاتيب [66]. وظاهرة الأحياء الفقيرة لم تكن حكرا على الحاضرة تونس فقد عرفتها أيضا مدن بنزرت وفيريفيل [67] وسوسة وصفاقس (ربض العوابد والقوابسية) ونابل (حي أولاد عمر)... لقد كانت هذه الضواحي والأحياء مجالا خصبا لتزايد المهمشين والمقصيين اجتماعيا.

ولابد من التأكيد على ضرورة الاهتمام بظاهرة التهميش الاستعماري ضمن مقاربات مجهرية وحالات منفردة فلا شك أن التاريخ هو من صنع أفراد البشر فوراء كل حدث مُحْدِث. لقد دأبت الكتابات التاريخية قديما وحديثا على الاهتمام بالفاعلين ولكنها لم تهتم بالعامّة منهم بل ركزت دوما على "الرجال العظام" والمشاهير والأبطال وأهملت الفاعل التاريخي العادي والفاعل المهمش أو الهامشي ونستحضر في هذا الصدد حالة الشاعر الشعبي عبد الرحمان الكافي.

برز الرجل في العشرينات وخاصة في نصفها الأول وقد صنفته التقارير الأمنية [68] ب "الوطني الثوري" وقد انتمى لفرع الجامعة الشيوعية التونسية سنوات 1921 و1922 وانجذب بحماس للأفكار العمالية والمساواتية فأصدر عددا من القصائد بنظم شعبي دارج امتدح فيها مزايا الشيوعية وتوحد العمال والفقراء وحرّض فيها على النضال ولعل أشهر هذه القصائد هي الملزومة الشيوعية [69] وسرعان ما أصيب هذا المثقف الشعبي بخيبة أمل من جرّاء انحسار نشاط الشيوعيين خصوصا بعد حملات التشهير التي أظهرت أتباع الحركة في ثوب الزنادقة والملحدين فانطلق سنوات 1923-1924 في تجربة جديدة مع الحزب الدستوري الذي امتدحه مرارا (ملزومة دستورية) وراهن على شعبيته وتأطيره للأهالي في مقاومة الاستعمار غير أن الرهان سرعان ما خاب مرّة أخرى بعد الفراغ الذي تركه الزعيم عبد العزيز الثعالبي إثر

---

66) DARDEL Jean-Baptiste, KLIBI Slaheddine Chedli, «Un faubourg clandestin de Tunis : le Djebel Lahmar», *Cahiers de Tunisie*, n°10, 2ème- 3èmetrimestre, 1955, p.216.

67) هي التسمية الرائجة في عهد الاستعمار للمدينة التي تكونت منذ 1883 والتي كانت ذات غالبية سكانية أوروبية والتي سميت مباشرة اثر الاستقلال بمنزل بورقيبة.

68) (أ . و. ت.)، السلسلة E 550-30، **المشبوهون**، ملف رقم 2757.

69) القزدغلي (حبيب)، **تطور الحركة الشيوعية بتونس 1919-1943**، كلية لآداب منوبة، 1992، ص 99، 78، 338.

مغادرته البلاد سنة 1923 وسقوط الحزب في يمّ النخبوية المتعالية" خاصة عندما تبرأ من محمد علي الحامي ورفاقه النقابيين في أواخر سنة 1924، ولم ييأس الكافي فترك الدعاية السياسية التي اقتنع بعقمها وانبرى يحث بقصائده على الإصلاح الاجتماعي داعيا لمحاربة الجهل والفقر والمعتقدات الزائفة ومقاومة تفشّي المخدرات (التكروي) والملهيات (ملزومة الشاي) [70] وقد كان يجوب الأسواق والقرى ويلقي قصائده في المقاهي وحفلات الأعراس والختان مقابل بعض الأموال والصدقات العينية وقد أدت به جرأته ونقده اللاذع للاستعمار والقصر والحاشية إلى دخول السجن عدة مرات بتهم التطاول على الهيئات الرسمية ولم يتمكن الرجل من الصمود فانساق بداية من سنة 1926 في تيار اللمبالاة والتهميش بعد أن أصدع بقصيدة أودته السجن لمدة طويلة اكتسبت شهرتها من شدة بذاعتها لا من بديع نظمها :

الصبر لله والرجوع لربي...الرجا في المولى أما الدنيا وأهلها مجمولة

جميع الدول الكل دولة دولة اللي ظهر واللي بقى متخبي

برياسها بملوكها بالصولة بتيجانهم بعروشهم...

باللي فيها برياسها بسلطانها بواليها ببيها بمقيمها بباصها بإمامها بالربي

بشيخ الإسلام بعدولها بمفتيها المدير والمراقب ...

وزير العدلية ومديرها ونائب الداخلية وشيخ المدينة ورئيس الجمعية لو كان يكون جنسه عربي..." [71]

لقد تهجّم من خلال هذا القصيد "الهابط" والناجح جماهيريا وبأسلوب ناقم وبذيء على كل رموز السلطة السياسية والدينية والاجتماعية فرنسية كانت أو تونسية ولم يستثن أحدا منهم بسبب شعور اليأس والإحباط.

---

70) حول مصدر هذه الملزومة أنظر :
(**أرشيف المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية**)، أرشيف الإقامة العامة، ش304، ورقة 697 بتاريخ 1926.
- المكني (عبد الواحد) : "من الظواهر الاستهلاكية الجديدة في المجتمعات المغاربية في الفترة الاستعمارية : "الشاي والتكروري" بالبلاد التونسية"، **إنسانيات**.المجلة الجزائرية في الأنثروبولوجية والعلوم الاجتماعية، عدد19-20، جانفي - جوان 2003، ص 45-79.

71) بلحولة (محمد علي) : **الجهاد التونسي في الشعر الشعبي. مائة عام من تاريخ تونس 1855-1955**، د، ت، ن 1978، ص 186-190.

وكانت قصيدته عبارة عن صيحة يائسة لمثقف شعبي [72] راهن على التغيير ولكنه شعر بالخيبة والفشل والمرارة وليس من باب الصدفة أن ينزلق هذا المنزلق عام 1926 بالتحديد وهي سنة استفحال الركود السياسي الشامل وترسخ السياسة الزجرية الاستعمارية.

لم يكن مصير التهميش الذي وصله الشاعر من باب المصادفات الاستثنائية بل كان الأمر عاديا فالرجل ينحدر من قبيلة أولاد بوسالم من عرش العبيدية ولم يتنعّم كثيرا بعطف والده القاضي الذي توفي مبكرا وتركه يتيما فاضطرته الظروف للتطوع سنة 1903 في الجندية الفرنسية ولم يتمكن من النجاح في كسب الترقي العسكري فعاد واستقر بمدينة تونس أثناء الحرب الأولى وعمل نسّاجا وولع بالشعر كأغلب "الحوكية" الذين يزاوجون بين نسج الصوف ونظم الكلمات وقد كان يتجول بين مجالس الأعيان والمثقفين الذين استظرفوه وأفادت التقارير أن الشيخ الطاهر بن عاشور مكنه من السكن في تربة العائلة الموجودة بنهج سيدي الزواوي وزوّجه من إحدى خادماته، وقد حاول الكافي أن يعمل بواسطة الشعر والكلمة والأدب كداعية للإصلاح والنهوض غير ان أمله خاب لا فقط في النخبة بل حتى في عامة الشعب لذلك تمادى في دروب التهميش وزادت السجنيات المتتالية في تعميق هامشيته [73] ولم يكن هذا المصير خاصا به فقد عانت جماعات من "أنصاف المثقفين" نفس المعاناة خصوصا مع استفحال الاحتياج وتراجع فرص الشغل من ذلك ما انتاب الشاعر الشعبي قاسم شقرون أصيل شقران من المثاليث بريف صفاقس عاش نفس الأزمة في نفس الفترة فقد كان نسّاجا (حوكيا) وشاعرا نازحا لم توفر له العاصمة وقساوتها ما كان يحلم به

*"يا ناس تونس قد قلبي منكم ** يا لابسين الذرح يا ما أبخلكم"*

---

72) المكني (عبد الواحد)، "الثقافة السياسية بتونس العشرينات"، **المغرب العربي في العشرينات**، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس 2001، ص123-140.

73) (أ – و– ت)، السلسلة E، 550 – 30
المشبوهون، ملف رقم 2757. ويحتوي الملف على 36 وثيقة جلها من صنف التقارير الأمنية والاستعلامية انظر خاصة وثيقة عدد 17 وبها تقرير مفصل عن عبد الرحمان الكافي مذيل بتاريخ 3 مارس 1922 ومن إمضاء العون كلابيي Clapier.

فرد الفعل وتنمّى وعيه وحاول الدعاية للفكر الوطني ثم دافع عن العمال :

*"اخدم واتحزّم بشريط *** حل الصرة تلقى خيط*

*اخدم حتّى لين تموت *** يا باب الله تنال القوت"* [(74)].

لكن انتهى به المطاف الى التهميش والأمر لم يكن حكرا على الشعراء الشعبين بل شمل عدة مثقفين وشعراء.

الخاتمـــــة

لقد حاولنا من خلال هذه المقاربة المنهجية والانثروبولوجية أن ننفذ الى كتابة تاريخ المسألة الاجتماعية من زاوية التهميش الاستعماري.

وبالقدر الذي نشدد فيه على ضرورة الاعتناء بكتابة هذه الشرائح المقصية فإننا نقر بالصعوبات المنهجية التي تثيرها مثل هذه الدراسة فشرائح المهمشين صنفتها النظريات الاجتماعية الشهيرة بأنها "بروليتاريا رثة" ميؤوس من فعلها الايجابي وقدرتها على الفعل التاريخي وصنع الأحداث في حين أنها عادت اليوم الى دائرة الضوء وهناك إيمان بقدرتها على الفعل وعلى كل حال فما يعنينا كباحثين هو تاريخها الذي ظل مغمورا ومغيبا لزمن طويل.

ولابد من التشديد على ضرورة توخّي الحذر في التصنيف حتى لا نسقط في ضرب من ضروب "التأريخ التدهوري" وهو جنس من الكتابة الميّالة الى تصوير الواقع بصفة قاتمة وسلبية والمولعة بالاهتمام "بالنكسة والفضيحة والأزمة".

إن تعداد فئات المهمشين وتصنيفهم هو أمر إجرائي ومنهجي فقط اقتضته المقاربة الأنُثروبولوجية للظاهرة ولا يجب ان يوحي لنا بان غالبية الشرائح الوسطى والمفقرة كانت مهمشة خلال الحقبة الاستعمارية فالأمر يتطلب التنسيب المطلق.

74) صحيفة **بوقشة** الهزلية عدد 11 محرم 1328 هجري/1910 م.